مكية الجزء الثلاثون سورة الأعلى آياتها ١٩

سُورَةُ الأَعْلَى، وهِيَ سورةٌ مكيّةٌ، ومن السنة أن الإمام يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَالْجُمُعَةِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١]، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١﴾ [الغاشية:١]، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ(١).

فمن حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُوتِرُ بِثَلَاثِ رَكَعَاتٍ، كَانَ يَقْرَأُ فِي الْأُولَى بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، وَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ، فَإِذَا فَرَغَ، قَالَ عِنْدَ فَرَاغِهِ: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يُطِيلُ فِي آخِرِهِنَّ(٢).

وفي «الصحيحين» أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**». ثَلَاثًا، «**اقْرَأْ**: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس:١] **وَ**: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]. **وَنَحْوَهَا**»(٣).

وثبت أن النبي ﷺ قرأ بها في الظهر فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١](٤)، وربما قرأ بها في العصر.

وقال البراء ابن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن النبي ﷺ لم يقدم المدينة حتى قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١](٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).
(٢) أخرجه النسائي (١٦٩٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٤) أخرجه مسلم (٤٦٠).
(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).

❖ ومن أسمائها: «سَبِّح» كما جاء عن ابن عباس، إذ لم تفتتح سورة في القرآن بهذا اللفظ إلا هذه السورة.

❖ ومن أسمائها: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ كما سماها رسول الله ﷺ.

❖ ومن أسمائها: الأعلى؛ إذ ذكر فيها اسم الله الأعلى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ: ﴿سَبِّحِ﴾، والأمر لمحمد ﷺ أمر لأمته إلا إذا جاء الدليل بخصوصية محمد ﷺ، ومعنى ﴿سَبِّحِ﴾: نزه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص والمعايب، وكل صفة ذميمة، والله عَزَّوَجَلَّ له المثل الأعلى، وقد سلك النبي ﷺ هذا المسلك، فكان يقول في سجوده: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»(١)، وَ«**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ(٢).

ومما يدل على عظم تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن النقائص والمعايب أن من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: السلام القدوس، وقد امتدح الله عَزَّوَجَلَّ الأنبياء إذ يسبحونه وينزهونه عن كل نقص وعيب ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]، فسبح الله نفسه منزهًا لذاته المقدسة عما ادعاه المبطلون من اتخاذ الصاحبة والولد، ثم سلم الله على الأنبياء والمرسلين؛ لأنهم نزهوا الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع النقائص والمعايب. فهو سبحانه له المثل الأعلى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠] أَيْ: الوصف الأعلى، فله من كل صفة كمالها، فحياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وعلمه لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وسمعه لا يخفى عليه شيء، قَالَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»(٣)، وبصره لا يفوته شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]، وعلمه لا يعزب عنه شيء ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥).

﴿ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٣]، وهو القيوم الذي قام بنفسه وتقوم به مخلوقاته، إذ لا قدرة لها على عيش أو حركة أو سكنه إلا بإقامته لها، وهو القدوس المنزه عن كل نقص وعيب، وهو السلام: السالم من النقص والعيب، إلى غير ذلك من الأوصاف التي وصف الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه.

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ قيل: سبح ربك المسمى بالأسماء، وقيل المعنى: سبح الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، إذ أن التنزيه والتسبيح قد يكون بالقلب، لكنه هنا أمر بالتسبيح باللسان ويتواطأ القلب واللسان. ﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾ هذا المعنى العظيم الذي ينبغي أن يعتقده كل مسلم، ومن خالف هذا الاعتقاد كان من الموافقين لعقيدة فرعون وهامان ومن سار على سيرهما.

فالله عَزَّوَجَلَّ الأعلى، عليٌّ بذاته، وعليٌّ بصفاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه:٥]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]، ولهذا كان المسلمون حين يضعون جباههم – التي هي أشرف موطن في الإنسان – في الأرض، ويكونون في حال السفل ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ بقولهم: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وكانوا في أسفارهم إذا صعدوا في الجبل كبروا، وإذا نزلوا سبحوا؛ تنزيها لله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «**كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا**»(١).

ثم وصف الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ خلق الإنسان، والحيوان، والسموات والأراضين ومن فيها وسواها، ﴿ فَسَوَّىٰ ﴾ أَيْ: أكملها وعدلها في أكمل صورة وأبهى حالة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤ ﴾ [الملك:١٤].

﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ ﴾ قدر مقادير الخلائق، فقدر آجالها ومآكلها ومشاربها وقدر منافعها وكل ما يتعلق بها ولا يمكن أن يتخلف عن مخلوق شيء مما قدره الله عَزَّوَجَلَّ وقضاه: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سُئِلَ النبي ﷺ فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا نَعْمَلُ أَفِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا أَوْ مَضَى أَوْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ الْآنَ؟ قَالَ: «**فِي شَيْءٍ قَدْ خَلَا وَمَضَى**» فَقَالَ الرَّجُلُ أَوْ بَعْضُ الْقَوْمِ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ**»(٢).

وفي «الصحيحين» عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٦).

الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»(٢).

﴿فَهَدَىٰ﴾ هداه إلى سبيل الخير، وحذره من سبيل الشر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠]، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣]، وأعم من ذلك الهداية العامة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]، خلق الإنسان وهداه إلى سبل معائشه، وخلق الحيوان وهداه إلى سبل معائشه، وبين لكل مخلوق سبل السلامة والعطب، وهذا لا يكون إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، ثم الهداية الأخرى وهي هداية البيان والدلالة والإرشاد، إذ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن والسنة على محمد ﷺ؛ لهداية الناس ودلالتهم إلى الخير العظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أَيْ: من أوصاف الله عَزَّوَجَلَّ أنه أخرج المرعى من جميع أصناف النبات والزروع، فانظروا إلى ما حولنا من الصحاري والفيافي، والجبال، والقفار، تكون يابسة لا شيء فيها وإذا بربنا عَزَّوَجَلَّ ينزل مطرًا أو غيثًا وإذا بالمرعى يخرج، فتأكل منه الأنعام، ويستفيد منه الإنسان.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ يخرج مخضرًا نظرًا ثم يصير يابسًا هشيمًا متغيرًا بعد ذلك كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥]، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ، وَأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أَحْوَى، أَيْ: أَخْضَرُ إِلَى السَّوَادِ، فَجَعَلَهُ غُثَاءً بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُحْتَمَلًا

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤).

إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ صَوَابٍ؛ لِمُخَالَفَتِهِ أَقْوَالَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ(١). اهـ.

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم قال الله لنبيه مبشرًا له: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ سنقرئك القرآن فلا تنساه، فالنبي ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، فأوحى الله إليه بالوحي، فكان إذا جاءه جبريل يعالج نفسه من أجل أن يتحفظ القرآن ويجد في ذلك مشقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٦-١٩] ثم إنك بعد ذلك تحدث به الناس.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ أن ينسخه، كما نسي بعض السور، ونسيها بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾، ويعلم ما في قلوب العباد وما يعملونه في السر والعلن، وهذا فيها ترهيب عظيم لجميع المسلمين أن يراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في خلواتهم وجلواتهم وكذلك يعلم مصالح العباد وما يصلحهم ظاهرًا وباطنًا.

ثم يقول الله ممتنًا على نبيه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ منة عظيمة، رفع الله عَزَّوَجَلَّ الأغلال والآصار عن أمة محمد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(٢)، وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى اليَمَنِ قَالَ: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا**»(٣)، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ ﴾ [الحج:٧٨].

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أَيْ: الناس وادعهم إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ، وعلمهم التوحيد، وحذرهم بطش الله، ورغبهم فيما عند الله، ﴿ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ قيل: معناها ذكر من كان متقبلًا للذكرى حيث ينتفع بها، وقيل المعنى: ذكر وإن لم ينتفع بها أحد؛ فإنك تؤدي الذي عليك، وقد استدل بعض أهل

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/٣٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨).

العلم بهذه الآية مع ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبعض السلف: أن الإنسان ينبغي أن يصون العلم، فلا يضعه إلا في المكان الذي يجد له قبولًا؛ حتى لا يمتهن ويزدرى، والذكرى تنفع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات:٥٥].

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ: الذي يستفيد من الذكرى هو من يخشى الله عَزَّوَجَلَّ، والخشية: هي الخوف مع التعظيم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨]، ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤]. فالله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن نخشاه، وأن نخافه ونراقبه فمن أراد الله له الخير في الدنيا والآخرة، رزقه خشيته.

وفي قوله: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أمر لمحمد ﷺ، وأمر لأمته لاسيما الدعاة وحملة القرآن وحفظة السنة، فينبغي لهم أن يتفرقوا في البلدان، وأن يقوموا في المساجد، وأن يوجهوا الناس إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الغفلة قد سيطرت على القلوب، ولم يبق مقبلًا على الله عَزَّوَجَلَّ إلا نزاع من الناس، وتأملوا المساجد فإنها في قفرة من عمارها إلا في يوم الجمعة، بل إن بعضهم ربما يصلي الجمعة ولا يصلي غيرها من الصلوات، والله المستعان.

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أَيْ: لا يتنفع بالذكرى ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ الشقي بكفره فيشقي في الدنيا بقسوة القلب وفساد العيش وغير ذلك من المصائب التي تلحقه، ويلحقه الشقاء في القبر وعذابه فيه والشقاء في الآخرة.

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أَيْ: يوم القيامة وقيل: بأن النار الصغرى نار الدنيا، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ، قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ

يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ(١).

﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ نارًا كبيرة عظيمة، قعرها بعيد وحرها شديد، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»(٢).

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لا يتنعم بحياة ولا يرتاح بموت ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧]، فقال الله في حق المؤمن: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان:٥٦-٥٧]، وفي المقابل قال في حق الكافر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]، وهذا من الأدلة على أبدية النار وخلودها أعاذنا الله منها، وهذا في حق الكافر، وأما من دخلها من أهل الإسلام فإنه يخرج منها، فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»(٣).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

ثم يقول الله ممتنًا على المؤمنين المخلصين المطيعين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قيل زكى نفسه بزكاة الفطر، والمعنى العام أولى: تزكى بالطاعات والقربات، من التوحيد، والصلاة، والصيام، والحج، والقيام، وحفظ القرآن، وبر الوالدين، وصلة الأرحام وطهر نفسه من الأخلاق الرذيلة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٨٤١)، والحديث في «الصحيح المسند» (٤٤٣) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٥).

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ هذا خبر من الله، وخبر الله لا يتأخر ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١).

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أيضًا ومن صفات المفلحين أنه يذكر اسم ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سبحه ونزهه ودعاه ورجاه، وصلى لله عَزَّوَجَلَّ لاسيما الصلوات المفروضات، وبادر أيضًا إلى النوافل والمستحبات، فكل ذلك محبوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم أخبر الله عن حال الناس إلا من رحم الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تحبون الدنيا وترغبون فيها وتقدمونها على الآخرة التي هي دار البقاء، تقدمون الفاني على الباقي، والقليل على الكثير، والشقاء على السعادة، والدنيا قد لعنها الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»(٢)، والدنيا زائلة لا تبقى، ولو بقيت للخَيِّرين لبقيت لمحمد ﷺ، ولو بقيت للجبابرة المعرضين لبقيت لفرعون والنمرود وبختنصر ومن إليهم، ولكنها لا تبقي لأحد، فحال الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا بمآكلهم ومشاربهم وشهواتهم ومعاملاتهم وتجاراتهم، وقد ذكر الله الدنيا بقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠]، وقال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»(٣).

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أَيْ: دار الآخرة، وهي الجنة؛ لأنها دار البقاء، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ»(٤)، خالدين فيها أبدًا يتنعمون بالنظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويتنعمون بالمآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك مما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤).

ثم يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ ما تقدم من وصف الله عَزَّوَجَلَّ وبشارة النبي ﷺ، والأمر بالتذكير ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، وقيل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ: قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، أَيْ: هذا في الكتاب المنزل على من كان قبل محمد ﷺ ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

﴿وَمُوسَىٰ ﴾ موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذ عانى من بني إسرائيل، ودعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وصابر وصبر.

والحمد لله رب العالمين.